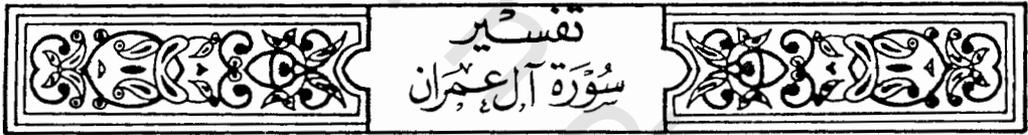


شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً، كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا...﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ في الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح، وفي الحديث «بعثت بالحنيفية السمحة» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء، ولا تبتلنا بما لا قبل لنا به. ﴿وَأَعِزَّنَا﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا. ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا، وأعمالنا القبيحة. ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ أي فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك. ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة. وفي الحديث: «كان إذا ختم البقرة قال آمين».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّوْبَةَ﴾

قد تقدم الكلام عن ﴿التَّوْبَةَ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

وتقدم الكلام على قوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، بشرت به في قديم الزمان، وهو يصدق لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي على موسى بن عمران. ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي على عيسى ابن مريم ﷺ.

﴿مِن قَبْلِ هُدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ .

﴿مِن قَبْلِ﴾ أي من قبل هذا القرآن . ﴿هُدَىٰ لِلنَّاسِ﴾ أي في زمانها . ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات . ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ جحدوا بها وأنكروها، وردوها بالباطل . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة . ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجنب، عظيم السلطان . ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي ممن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ .
يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض، لا يخفى عليه شيء .

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ .
﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ...﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد . ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية، وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره في الرحم، وخلقها كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصراني، عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6] .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالات، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر، فيها اشتباه في الدلالات على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن رد ما اشبه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه . ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي تحتل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد . ﴿زَيْغٌ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل . ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الاضلال لاتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة

عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 59] وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّعَاةَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تحريفه على ما يريدون ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قيل: الوقف على الجلالة، أي وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون آمنا به. وقيل: الوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الراسخون في العلم يعلمون تأويله، ويقولون: آمنا به. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة، والفهوم المستقيمة. سئل رسول الله ﷺ عن الراسخين في العلم فقال: «من برت عيناه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم».

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)

أي لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتهما عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم. ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ في الحديث كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ثم قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا...﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ (٩)

أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزئ كلاً بعمله، وما كان عليه من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠)

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغْنُرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١١) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196، 197] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بايات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه. ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ أي حطبها الذي تجر به، وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال: «هل بلغت؟» يقولها ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب، وكان أواهاً فقال: اللهم، نعم، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر. فقال النبي ﷺ: «ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن، فيقرؤونه ويعلمونه فيقولون: قد قرأنا وقد علمنا، فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير». قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، أولئك هم وقود النار».

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١١).

كصنيع آل فرعون. والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كنهه ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك. والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد. بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب، لا يتمتع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد، الذي قد غلب كل شيء، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِن سَعْتُهُمْ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢).

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ستغلبون أي في الدنيا، وتحشرون أي يوم القيامة إلى جهنم ويسس المهاد. لما أصاب رسول الله ﷺ من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع وقال: «يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً» فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نफراً من قريش كانوا أغماراً، لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك هذه الآية والتي بعدها.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَلْعِبْرَةَ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣).

﴿آيَةٌ﴾ أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته، ومعل أمره. ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي طائفتين. ﴿الَّتَقَتَا﴾ للقتال. ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. أو يري الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم أي ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. ﴿إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ...﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده والمؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ﴾ (١٤).

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ، من النساء والبنين، فبدا بالنساء

لأن الفتنة بهن أشد، وفي الحديث «ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء» فأما إذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وفي الحديث: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله» وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير أمة ﷺ فهذا محسود ممدوح، وفي الحديث «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وحب المال كذلك تارة يكون للفخر، والخيلاء والتكبر على الضعفاء والجبر على الفقراء فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً. والقنطار هو المال الجزيل. وقد سئل النبي ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَالْقَنْطَارِ الْمَفْتَطَرِ﴾ قال: «القنطار ألفا أوقية». وحب الخيل على ثلاثة أقسام: فتارة من أجل الغزو عليها في سبيل الله، فهؤلاء يثابون، وتارة للفخر على أهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف والنسل، دون نسيان حق الله في رقابها فهذه ولصاحبها ستر. و﴿الْمُسَوِّمَةِ﴾ الراعية والمطهمة الحسان. ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم. ﴿وَالْحَرِيثِ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة. ﴿ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا، وزينتها الفانية الزائلة. ﴿حَسْبُ الْمَنَابِ﴾ أي حسن المرجع والثواب.

﴿قُلْ أَوُنِّبِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥).

أي قل: يا محمد للناس أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكين فيها أبد الآباد لا يبعثون عنها حولاً. ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس، وغير ذلك مما يعتري النساء ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكُ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١).

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكُ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي بإيماننا بك، وبما شرعته لنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وتقصرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك.

﴿الصَّكْبِينَ وَالْمُكْدِينَ وَالْقَدِينِ وَالْمُنْفِيَةِ وَالْمُسْتَفِيرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧).

﴿الصَّكْبِينَ﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات. ﴿وَالْمُكْدِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة. ﴿وَالْقَدِينِ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع. ﴿وَالْمُسْتَفِيرِينَ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخلافات، ومواساة ذوي الحاجات. ﴿وَالْمُسْتَفِيرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام لما قال لابنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: 98] إنه أخرهم إلى وقت السحر. وفي الحديث «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨).

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبده وخلقه، وهو الغني عما سواه ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال كذلك. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يرام جنباه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩).

إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين - حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله بعد بعثه محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَالِينَ﴾ [آل عمران: 85] ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا...﴾ أي يعني بعضهم على بعض فاختلَفوا في الحق. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي من يجحد بما أنزل الله في كتابه ﴿فَأَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ جادلوك في التوحيد. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ...﴾ أي فقل: أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ندم له ولا ولد له ولا صاحبة له. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي على ديني يقول ك مقاتلي كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] ثم قال تعالى أمرأ لبعده

ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله من الكتابين من المليين والأميين من المشركين فقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَيْمَانَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ﴿وَاللَّهُ بِصَيْرِئِ بِالْعِبَادِ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة. وهذه الآية وأمثالها من أصرح الآيات على عموم بعثته صلوات الله عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث. وفي الحديث «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» رواه مسلم. وفي الحديث أيضاً «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» وروى الإمام أحمد عن أنس أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فاتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان قل: لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجني لي من النار» رواه البخاري في الصحيح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عَمْرٍ حَقًّا وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقِطْتَ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا ذم من الله لأهل الكتاب بما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاضماً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس». عن عبيدة بن الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ...﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيدة، قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل». ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي موجه مهين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقاً مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم الذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعاوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا غاية ما يكون من ذلهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ...﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً. ﴿وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم، واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً. قال تعالى مهدداً لهم:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦).

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي الله الملك كله. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقليين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشف له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار.

ولهذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ...﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، وتعطي النبوة من تريد، فلك الحكمة البالغة، والحجة التامة في ذلك.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَيْزٍ حَسَابٍ﴾ ﴿٢٧﴾ .

أي تأخذ من طول هذا فتزیده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيفتاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً، وخريفاً وشتاءً. وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ . . .﴾ أي تخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء. ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ . . .﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده، ولا يقدر على إحصائه، وتقرر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشیئة.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهُمْ ثَمَنَةً وَيُحذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨﴾ .

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء، يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ . . .﴾ أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برىء من الله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 144] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ يَتَّوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51] وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فَوَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٧﴾ [الأنفال: 73] وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهُمْ ثَمَنَةً﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاھرہ لا بباطنه ونبته، وفي الحديث «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم» وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106] وقوله: ﴿وَيُحذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يحذرکم بنقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ .

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما في الأرض والسماوات، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والجبال. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه، وما يبغضه منهم فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ولا يهمل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ . . .﴾ يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال: ﴿يَبْتَئُوا الْإِنْسَانَ بِوَمِيذِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: 13] فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغصه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول الشيطان الذي كان مقرّوناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿يَلْتَمِثَ يَبْنِي وَيَنُكِرَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقُرْآنَ﴾ [الزخرف: 38] ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم عقابه، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لثلا يئسوا من رحمته، ويقنطوا من لطفه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه، وقال غيره: أي رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ . . .﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ. وفي الحديث: «هل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله». ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . . .﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته. ثم قال تعالى لأمر لكل أحد من خاص وعام:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله، ويتقرب إليه حتى يتابع النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء، بل المرسلون، بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته، واتباع شريعته.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم ﷺ: خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لماله في

ذلك من الحكمة . واصطفى نوحاً عليه السلام : وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان، وانتقم له لما دعا على قومه فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به . واصطفى آل إبراهيم : ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد عليه السلام . ﴿وَأَلَّ عِمْرَانٌ﴾ والمراد بعمران هذا والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام ، فعيسى من ذرية إبراهيم عليه السلام .

﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٥) .

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائي، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها: أذكر أم أنثى؟ .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٢٦) .

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة، وفي الحديث: «ولد لي الليلة ولد، سميت به باسم أبي إبراهيم» وفي الحديث «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا...﴾ .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمِرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) .

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه أنبتها نباتاً حسناً، أي جعلها شكلاً مليحاً، ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، فلماذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وما ذلك إلا لأنها كانت يتيمة . وإنما قدر الله كون زكريا كفلاً لسعادتها لتقتبس منه علماً نافعاً وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل: زوج أختها كما ورد في الصحيح «إذا يحيى وعيسى وهما ابنا لخالة» . ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا...﴾ وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء . وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿أَنَّ لَكَ هَذَا﴾ أي من أين لك هذا؟ .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢٨) .

كما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام وفاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حيثئذ في الولد، وإن كان شيخاً كبيراً، قد وهن منه العظم، واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته

مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي ولداً صالحاً.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩).

أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى ابن مريم. ﴿وَسَيِّدًا﴾ في العلم والعبادة، أو السيد الحليم التقي، أو السيد هو الفقيه العالم، أو هو السيد في خلقه ودينه، أو هو الذي لا يغلبه الغضب، أو هو الشريف، أو هو الكريم على الله عز وجل. ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يأتي النساء، أو هو الذي لا يولد له، أو لا ماء له، وفي حديث: «ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: وإنما ذكره مثل هدبة الثوب، وأشار بألمته. وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿وَحَصُورًا﴾ ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيباً، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها» وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا عليه الصلاة والسلام الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهن، وقيامه عليهن، وإكسبه لهن، وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»، والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور، ليس لأنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال، وغشيانهن وإيلادهن، بل يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠).

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي قال الملك: هكذا أمر الله العظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاضمه أمر.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَخِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿آيَةً﴾ أي علامة استدلت بها على وجود الولد مني . ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ أي إشارة، فلا تستطيع النطق مع أنه سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ . [مریم: 10] ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسييح في هذه الحال فقال تعالى: ﴿وَآذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا...﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .
هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اختارها لكثرة عبادتها، وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس، واصطفائها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . وفي الحديث «خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تترك مريم بنت عمران بغيراً قط» . وفي الحديث «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .

القنوت: هو الطاعة في خشوع، وفي الحديث «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة» ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي كوني منهم .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمْنَاهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نقصه عليك . ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة ما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقتصروا في شأن مريم: أيهم يكفلها؟، وذلك لرغبتهم في الأجر .

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْتَئِثُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير، ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] . ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك . وسمي المسيح: قال بعض السلف: لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين، لا أخصص لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالى . ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة إلى أمه، حيث لا أب له .

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا...﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ﴾ (٤٦).

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ...﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حالة صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه. ﴿وَمِنَ الصَّبِيِّينَ﴾ أي في قوله وعمله. له علم صحيح وعمل صحيح. وفي الحديث: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاث: عيسى وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر».

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤٧).

تقول: كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله، فقال لها الملك عن الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء. وقال هنا: ﴿يَخْلُقُ﴾ وفي قصة زكريا ﴿يَفْعَلُ﴾ [البقرة: 85] لثلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا...﴾ أي فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] أي إنما تأمر مرة واحدة، لا مثنوية فيها، فيكون ذلك لشيء سريعاً كلمح البصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨).

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلمه الكتاب والحكمة، والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة. والتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩).

كان يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله. ﴿الْأَكْمَهَ﴾ قيل: إنه الذي يبصر نهراً ولا يبصر ليلاً، وقيل: بالعكس، وقيل: الأعشى، وقيل: الأعمش، وقيل: هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة، وأقوى في التحدي. ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ معروف. ﴿وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله

كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام. وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو رهين في قبره إلى يوم التناد، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء، وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً. ﴿وَأَنبِئِكُمْ بِمَا تَأْكُونُ...﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته غداً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠).

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مقررأ لها ومثبتاً. ﴿وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ...﴾ فيه دلالة على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، فكشف لهم عن المغطى، كما قال: ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: 63] ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١).

أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ؕ ؕ ؕ﴾

﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢).

فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال. ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فأووه، ونصروه وهاجر إليهم فواسوه، ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم، وهكذا عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم انتدب له طائفة من بني إسرائيل فأمنوا به ووازره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ...﴾ الحواريون:

قيل: كانوا قصارين، وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين، والصحيح أن الحوارئي الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حوارى، وحوارى الزبير».

﴿رَبِّنَا أُمَّتًا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ.

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن ملا بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب حين تماثروا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلده في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية، حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله من بينهم، ورفع من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه، ورفع من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ...﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مَرْجِعُهُمْ فَاَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي إني رافعك ومتوفيك، يعني بعد ذلك، وقيل: توفاه ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه، قال ابن جرير: توفيه هو رفعه، أو المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَنبَاءِ الْوَأْتِلِ﴾ [الأنعام: 60] ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَابِعِهَا﴾ [الزمر: 42]. وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا» قال الحسين: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إن عيسى لم يموت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة» وقوله تعالى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ...﴾ وهكذا وقع، فقبل بعثة النبي ﷺ كان النصارى قاهرين لليهود، لأنهم كانوا أقرب إلى الحق منهم، إذ غيروا وبدلوا أيضاً، فكانوا جميعاً كفاراً، فلما بعث الله محمداً ﷺ ونسخ به الشرائع قبله، وأقام به الحق جعل دينه ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واجتازوا جميع

الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوها كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبیهم عن ربهم عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْكُنَنَّ لَهُمْ فِيهَا دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أُمَّةً يُعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٥٦).
وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧).
﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨).
أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده، وكيفية أمره هو مما قاله تعالى، وأوحاه إليك، ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مریم: 34].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٥٩).
يقول جل وعلا ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله من حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجاوز ذلك في آدم بطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً، وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم، لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا سِنَّةً لِلنَّاسِ﴾ [مریم: 21].

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْمُنْمَرِينَ﴾ (٦٠).
أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا يحيد عنه، ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ (٦١).

أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبَّهْتُمْ﴾ أي نلتعن. ﴿فَنَجَعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ أي مناومنكم. قال البخاري: حدثنا عباس... عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ. فقال: «قم أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٦).

أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٧).

أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد، والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نعمته.

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤).

هذا خطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما هنا. ﴿سَوٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ﴾ أي عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثناً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: 25] وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا يطبع بعضنا بعضاً في معصية الله. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. وهذه الآية الكريمة جاءت في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ وكتاب رسول الله إلى هرقل بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد من أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب أنه يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين.

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥).

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، فقد اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ...﴾ أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿هَتَانَتْمْ هَتَوْلَاءَ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦).

هذا إنكار على من يحاُج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاُجوا في إبراهيم بلا علم فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَسْلَمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي، يعني محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم. وفي الحديث: «إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي و خليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ...﴾ وقوله ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليي جميع المؤمنين برسله.

﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩).

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، ويغيب إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم مذكور بهم.

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ أي تعلمون صدقها وتحققون حقاها.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ .
 ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تكتُمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ، وأنتم تعرفون ذلك
 وتحققونه .

﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِاللَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرُهُ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا
 الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم،
 ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين،
 ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ
 عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سرهم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا
 تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به، ويحتجوا به عليكم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ
 اللَّهِ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من
 الآيات البيّنات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من
 صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه
 منكم ويساؤونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به. ﴿أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي يتخذوه
 حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة، وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ إِنَّ
 الْفَضْلَ . . .﴾ أي الأمور كلها تحت تصرف الله، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان
 والعلم، والتصرف التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل
 على بصره غشاوة، وله الحجة التامة، والحكمة البالغة .

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ .

أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على
 سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنُهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ
 إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَابِئًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

يخبر الله تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَبْتَغِمْ﴾ أي من المال ﴿يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي المطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما قوله أولى أن لا يؤديه إليك. قال مالك بن دينار: إنما سمي الدينار لأنه ذئب و نار، أي من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: اتني بالشهداء أشهدهم فقال: كفى بالله شهيداً، قال اتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعتها إليه إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، وسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإني أستودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرهما وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأثامه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي آتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل هذا؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بألف دينار راشداً. هكذا رواه البخاري في موضع معلقاً بصيغة الجزم، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده. وقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأيمن وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وقد اختلفوا هذه المقالة، واثفكوا هذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بهت. سأل رجل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأيمن سبيل، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. عن سعيد بن جبيرة قال: لما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُجِبُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

أي لكن من أوفى بعهده و اتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ

إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأمهم بذلك واتقى محارم الله، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

يقول الله تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته للناس، وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها. ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار، وفي الحديث عن أبي ذر: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خسروا وخابوا، قال: وأعاده رسول الله ثلاث مرات، قال: «المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان».

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِذِّبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِّبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

يخر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا، وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِّبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِذِّبِ﴾ يحرفونه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩).

ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي من الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريقة الأولى والأخرى، وقد كان أهل الكتاب يعبدون أبحارهم ورهبانهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31] وقد قال عدي بن حاتم: يا رسول الله، ما عبدوهم، قال: «بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» فالجهلة من الأبحار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرهم بما يأمر الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه، وبلغتهم إياه رسله الكرام. وقوله ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ . . .﴾ أي ولكن يقول الرسول

للناس: «كونوا ربانيين»، أي حكماء علماء حلماء، فقهاء، أهل عبادة وأهل تقوى. وحق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً. ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمونه للناس. ﴿تَدْرُسُونَ﴾ أي تحفظون ألفاظه.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).
أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ...﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعاء غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١).

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته. ﴿إِصْرِي﴾ أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد.

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ (٨٢).

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق قال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وفي الحديث: «لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣).

يقول تعالى منكرأ على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السموات والأرض، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلأ بعمله.

﴿قُلْ ءَأَمَّنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا إِنْزِيلًا إِسْرَائِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي من الصحف والوحي. ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر. ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل. ﴿وَالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني بل نؤمن بهم جميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).
من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه. ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦).

عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل من قرية؟ فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم. ومعنى الآية أن هؤلاء قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَّمْتَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧).
أي ينعمهم الله ويلعنهم خلقه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٨).
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يفتّر عنهم العذاب، ولا يخفف عنهم ساعة واحدة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩).

وهذا من لطفه وبره ورافته ورحمته وعائده على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠).

يقول الله متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِّتُ أَتَيْنَهُ [النساء: 18] ولهذا قال هنا: ﴿لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ أَضْغَالُونَ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي. عن ابن عباس أن قوماً أسلموا، ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا لهم ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أَوْلِيَّتِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٩١).

أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملاء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان، وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» وكذلك لو افتدى بملاء الأرض ذهباً ما قبل منه. في الحديث: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك! قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك» أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد. ﴿أَوْلِيَّتِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢).

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ الجنة. كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب ماله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣).

قال ابن عباس: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام» قالوا: فذلك لك، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه

والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر الله، لئن شفاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها» فقالوا: اللهم نعم، فقال: «اللهم اشهد عليهم» وقال: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد عليهم» قال: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد» قال: «وإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه» قالوا نعم: فعند ذلك نفارقك، ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبْرِيِّلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾ فإنها ناطقة بما قلناه.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤).

أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت، والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥).

أي قل يا محمد: صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن، فاتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧).

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني الكعبة. عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدرتكم الصلاة فصل فكلها مسجد». وسميت بكة لأنها تبك أعناق الظلمة والجباة. ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم وأن الله عظمة وشرفه. ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه، ويناوله ولده إسماعيل. ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾. يعني حرم مكة،

إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في الجاهلية. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، والاستطاعة الزاد والراحلة ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ...﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه. عن عمر بن الخطاب يقول: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً».

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩).

هذا تعينف من الله تعالى للكفرة: أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصددهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي وسيجزئهم على ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (١٠٠) [الشعراء: 88].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠).

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109].

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١).

يعني أن الكفر بعيد منكم، وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل عليكم ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَأَنْ تَكُونُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُونَ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتِهِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) [الحديد: 8، 9] وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة، قال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: فنحن، قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟» قالوا: فأي الناس أعجب إيماناً؟ قال:

«قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها». وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْبَاطِلَ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعمدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١١٢).

في الحديث ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى» وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] وقيل: ليست منسوخة، و﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم. وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه. وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صمتكم وسلامتكم لتموتوا عليه. فإن الكريم قد أجرى عاداته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياً بالله من خلاف ذلك. وفي الحديث «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه».

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١١٣).

﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ بعهد الله، أو بالقرآن، وفي الحديث «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه» وقوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن التفرقة، وفي الحديث «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» وقد تضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ. وقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب في الجاهلية، وعداوة شديدة، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الإسلام، فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، وكما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63].

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٤).

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾، وفي الحديث «قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَنْ تَكُونَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْرِ﴾ قال: «الخير اتباع القرآن وستي» والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» وفي رواية «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وفي الحديث «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم. روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس. وقال الحسن البصري: هم المنافقون. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.
﴿فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا ييغون عنها حولاً.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.
أي هذه آيات الله وحججه وبياناته تنلونها عليك يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي تكشف ما الأمر عليه في الدنيا

والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ليس بظالم لهم، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجوز، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه. ولهذا قال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١١٩).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملك له، وعبيد له. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ (١١٠).

والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس. ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وفي الحديث قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «خير الناس أقرامهم وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم». وقيل: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ولما مدح الله هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنبهم فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

﴿لَن يَصْرِوْكُمْ إِلَّا أَذَىٰ ۖ وَإِن يَفْتَلِحُواْ بِكُفْرَانِهِمْ لَنَبْغِ بِكُمْ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (١١١).

هكذا وقع، فإنهم يوم خبير أذلهم الله، وكذلك من قبلهم من يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى في الشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلٰةُ أَيْنَ مَا تُقِفُواْ إِلَّا بِحِجَابٍ مِّنَ اللَّهِ وَحِجَابٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَآءُ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢).

أي أزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يؤمنون. ﴿إِلَّا بِحِجَابٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي بذمة الله، وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة. ﴿وَحِجَابٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي أمان منهم لهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين، ولو امرأة، وكذا عبْدٌ على أحد

قولي العلماء. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي أزموا، فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ﴾ أي أزموها قدرأً وشرعاً. ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ...﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا...﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقبضوا لذلك. أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياداً بالله من ذلك، والله عز وجل المستعان. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق بغلهم في آخر النهار.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣).

أي لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ وفي الحديث عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل الكتاب أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال فنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ والمشهور أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة وغيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم. ولهذا قال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة بعني مستقيمة. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يقيمون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤).

وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وَلِإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ولهذا قال تعالى ههنا:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥).

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي لا يضيع عند الله ما عملوا من خير، بل يجزيهم به أوفر الجزاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦).

﴿لَنْ تُنَبِّئَهُمْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله، ولا عذابه إذا أراد بهم.
﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧).

﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي برد شديد، أو برد وجليد، أو نار، وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد، ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار. ﴿فَأَهْلَكَتُهُ﴾ أي فأحرقته، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه، أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار، يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨).

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على أسرارهم، وما يضمرونه لأعدائهم. والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم. وقوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أي من غيركم من أهل الأديان. وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على خاصة أمره. وفي الحديث الذي رواه لبخاري والنسائي وغيرهما «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانة: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله» قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً، فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من غير المؤمنين. ففي هذا الأثر مع الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنِّ...﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم، وفتلت ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل. ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ مُجِبُّوهُمْ وَلَا يُجِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩).

أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون من الإيمان فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة، أو تؤمنون بكتابكم وكتابتهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. والأنامل: أطراف الأصابع، أو الأصابع. وهذا شأن المنافقين، يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه على أشد الغيظ والحق. ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين، ومكمل دينه، ومعل كلمته، ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيتكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ أي هو عليهم بما تنطوي عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، لا محيد لكم عنها، ولا خروج لكم منها.

﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوُّهُمُ وَإِنْ تَصَبَّحْتُمْ سِنَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة أي جذب، أو أدب عليهم الأعداء لما لله في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا...﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيته، ومن توكل عليه كفاه.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بُيُوتَ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان الصابرين فقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾ المراد هذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور، وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب، وهو غريب لا يعول عليه، وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. ﴿بُيُوتَ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي منزلهم منازلهم: وتجعلهم ميمنة وميسرة، وحيث أمرتهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقولون، عليهم بضمائرهم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال عمر: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلَافِثَانِ...﴾ قال نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما يسرني أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١١٣).

﴿بِئِدْرِ﴾ أي يوم بدر، وكان يوم الجمعة، وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك، وخرّب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان، وسبعون بغيراً، والباقيون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة، والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيلته، وأخزى الشيطان وجيله. وبدر: محلة بين مكة والمدينة، تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها، يقال له: بدر بن النارين. أو هي بئر لرجل يسمى بدرأ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١١٤).
اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر، أو يوم أحد على قولين. والظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١١٥).

﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ أي من وجههم هذا ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي معلمين بالسيما، وكان سيما الملائكة يوم بدر الصدف الأبيض، وسيماهم أيضاً في نواصي خيولهم، أو مسومين بسيما القتال، أو بالعمائم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١١٦).

أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم، وتطيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم. ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والأحكام.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا حَتَّابِينَ﴾ (١١٧).

أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير. ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ فيرجعوا. ﴿حَتَّابِينَ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٨).

أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي، إلا ما أمرتك به فيهم، والأمر كله إلي. ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ آتَيْنَاكَ وَالْحَسَابُ﴾ [الرعد: 40] ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مما هم فيه من الكفر، فيهديهم بعد الضلالة. ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ﴿فَأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي يستحقون ذلك. كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين، يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٩).

أي الجميع ملك الله، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ...﴾ أي هو المتصرف، فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله غفور رحيم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠).

نبى الله تعالى عباده المؤمنين عن تعاطي الربا، وأكله أضغافاً مضاعفة، كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين: إما أن تقضي، وإما أن تربي، فإن قضاؤه وإلا زاده في المدة، وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، وربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة، ثم توعدهم بالنار، وحذرهم منها، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿وَكَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (١٣٣).

ثم نديهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات، والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى: ﴿وَكَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ أي أعدت الجنة للمتقين كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: 54] أي فما ظنك بالظواهر. وقيل: بل عرضها كطولها. وفي الحديث: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن» وفي مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ: «إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟».

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤).

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي في الشدة والرخاء،

والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِإِتِّبَالٍ وَاللَّهُكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: 274] والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله، والإنفاق في مرضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر. ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي إذا قاربهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. وفي الحديث «من كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن خزن لسانه ستر الله عورته، ومن اعتذر إلى الله قبل عذره» وهذا حديث غريب، وفي إسناده نظر. وفي الحديث «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وفي الحديث «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥).

أي إذا صدر منهم ذنب اتبعوه بالتوبة والاستغفار. عن أبي هريرة قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، فقال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم...». وفي الحديث «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون». ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يغفرها أحد إلا الله. وقد أتى النبي بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله». ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا...﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية وبصروا عليها غير مقلين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه. وفي الحديث «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة».

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَلُونَ فِيهَا الْعَمَلِينَ﴾ (١٣٦).

أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من أنواع المشروبات. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكنين فيها. ﴿وَيَعْمَلُونَ فِيهَا الْعَمَلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧).
يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون ﴿قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين. ولهذا قال: ﴿فَيَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٨)

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم، وهدى قلوبكم، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩)

ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى. ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون.

﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٠)

﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ ﴾ أي إن كنتم قد أصابتم جراح، وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح. ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أي ندبل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قال ابن عباس في مثل هذا: لئرى من يصبر على مناجزة الأعداء. ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يعني يقتلون في سبيله، ويبدلون مهجهم في مرضاته.

﴿ وَلِيُحْصِيَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴾ (١٤١)

﴿ وَلِيُحْصِيَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. ﴿ وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٢)

أي أحسبتم أن تداخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ . . . ﴿ [البقرة: 214] وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [١] ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ [٢] ﴿ [العنكبوت: 2، 3] أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نٰظِرُونَ ﴾ (١٤٣)

أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فما حصل الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم، فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ولهذا قال تعالى ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ﴾ يعني الموت، شاهدتموه وقت حد الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال. والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس، كما تخيل الشاة صداقة الكبش، وعداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤).

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم نادى الشيطان: إلا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة، وفي جواز القتل عليه. ثم قال تعالى منكرأ على من حصل له ضعف ﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقري. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي الذين قاموا بطاعته، وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥).

أي لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له. ولهذا قال: ﴿كِنَبَأٌ مُّوجَّلاً﴾ كقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11] وهذه الآية فيها تشجيع للجناء، وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا...﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها، وما قسم له في الدنيا. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

﴿وَكَايِنَ مَنِ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦).

ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد: ﴿وَكَايِنَ مَنِ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ ريثون: جموع كثيرة أو علماء كثر، أو علماء صبر، أي أبرار أتقياء، فما ارتدوا عن نصرتهم، ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا به.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ...﴾ أي لم يكن لهم هجير إلا ذلك، أي لم يكن له دأب وعادة إلا ذلك.

﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨).

﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي النصر والظفر والعاقة ﴿وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا.

﴿يَتَّيْنُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ عَظَمِكُمْ فَتَنَقَّبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٤٩).

يحذر الله عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠).

ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ...﴾.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١).

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم، والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال. فقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ...﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لِتُجِبُوا رِيسًا ۗ إِنَّكُم مِّن كٰفِرِينَ﴾ (١٥٢).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي أول النهار. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ أي تقتلونهم. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ الفشل: الجبن. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرماة. ﴿مِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لِتُجِبُوا رِيسًا﴾ وهو الظفر بهم. ﴿وَمِنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾

تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال. ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ...﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي...﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل، وحكم حتم لا محيد عنه، ولا مناص منه. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم، ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما يختلج في الصدر من السرائر والضمائر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥).

﴿بِعَظْمِ مَا كَسَبُوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنب، ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥٦).

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي عن إخوانهم. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها. ﴿أَوْ كَانُوا غُرَىٰ﴾ أي كانوا في الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أي في البلد. ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم. ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي بيده الخلق، وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يزداد في عمر أحد، ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧).

تضمن هذا أن القتل في سبيل الله، والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا، وجمع حطامها الفاني.

﴿وَلَكِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨).

ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصييره ومرجه إلى الله عز وجل فيجزيه به بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فقال: ﴿وَلَيْنَ مُتَمَّنٍّ أَوْ قَتِلْتُمْ...﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ فَرَقًا فَغَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩).

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لجزره، وأطاب لهم لفظه ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ فَرَقًا فَغَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم، أو فبرحمة من الله لنت لهم. و﴿مَا﴾ صلة، والعرب تصل بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ بِمِثْفَهُمُ﴾ [النساء: 155] وبالنكرة كقوله ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: 40] وهكذا هنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ...﴾ أي برحمة من الله. قال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ الفظ الغليظ، والمراد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ألان جانبك لهم تألفاً لقلوبهم. قال عبد الله بن عمرو إنني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وفي الحديث «إن الله أمرني بمدارة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض» حديث غريب. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولذلك كان رسول الله يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطيباً لقلوبهم ليكون أشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يعقد في المدينة. أو يخرج إلى العدو، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق: إنا لم نجء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال، وقال في قصة الإفك: «أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أنبوا أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء» وهل كانت الاستشارة واجبة عليه أم هي من باب الندب «تطيباً لقلوبهم؟ قولان وقد قال النبي لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما» وفي الحديث: «المستشار مؤتمن» ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠).

هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ فَخُذْهُ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْهُ لِقَابًا أَوْ تَهْتِكُوا مِنْهُ خَشْيَةَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ خَرَّ يَرْجُوًّا ذَاكًا وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِ جُنَاحٌ مِمَّا يَفْتِيكُم مِّنْهُ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِ جُنَاحٌ مِمَّا يَفْتِيكُم مِّنْهُ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِ جُنَاحٌ مِمَّا يَفْتِيكُم مِّنْهُ﴾ .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ وَمَنْ يَمْلِكُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١١) .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ ما ينبغي لنبي أن يخون، نزلت في قطيفة حراً، فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها، فأكثروا في ذلك فنزلت. وهذا تنزيه له ﷺ من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة، وغير ذلك. أو الغلول أن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً، أو بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغ أمته. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ...﴾، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد. وقد استعمل ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللثبية على الصدقة فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «وما بال عامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء يوم القيامة على رقبته، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت» ثلاثاً.

﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١١٢) .

أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجبر من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، وماواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٣)

يعني أهل الخير وأهل الشر درجات فهم متفاوتون في منازلهم، درجاتهم في الجنة، ودرجاتهم في النار. كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132] ولهذا قال سبحانه ﴿وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي وسيوفهم إياها، ولا يظلمهم خيراً، ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١١٤) .

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21] أي من جنسكم. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، لتزكوا نفوسهم، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم، وجاهليتهم. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني القرآن والسنة. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الرسول. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لفي جهل ظاهر جلي بين لكل أحد.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ .

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم. ﴿قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً. ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم يعني بذلك الرماة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ .

أي فراركم بين يدي عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَكُمُ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ .

يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين، يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ يعني كثروا سواد المسلمين، أو ادفعوا بالدعاء، أو رابطوا. فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَكُمُ﴾ أي لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً. ﴿هُم لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان. ثم قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أنهم يقولون القول، ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَكُمُ﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرفهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ .

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ .

أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ . . .﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾ (١٦٩).

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ولما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠).

أي وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. نسأل الله الجنة.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١).

أي سرُّوا لما عينوا من وفاء الموعود، وجزيل الثواب. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ

عَظِيمٌ﴾ (١٧٢).

هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة، وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ رسول الله ﷺ نذب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم، ويرهبهم أن بهم قوة وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والأثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وقيل: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتن، بثسما صنعتم، ارجعوا فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣).

أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكثرثوا بذلك، بل توكلوا على الله واستعاذوا به. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ عن ابن عباس قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في

النار، وقالها محمد حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم... قضى النبي ﷺ بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «ردوا علي الرجل» فقال: «ما قلت؟» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل» فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل».

﴿فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ أَمْرِ قَلِيلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤).

أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. ﴿فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ أَمْرِ قَلِيلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضر لهم عدوهم. ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. النعمة: أنهم سلموا، والفضل أن عيراً مرت في أيام الموسم فاشترها رسول الله فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

أي يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ...﴾. إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجاؤا إلي، فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [الزمر: 36] وكما قال ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76] وقال ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: 19].

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦).

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ...﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعداوة والشقاق، فقال تعالى: ولا يحزنك ذلك، ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا...﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧).

ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقررأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي استبدلوا هذا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ولكن يضررون أنفسهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَالَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٨).

هذه الآية كقولها ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ زَيْدٌ وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ مِنْهُ لِيُزِيدُوا كَيْدًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٩).

[المؤمنون: 55، 56] وكقوله ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ يَهْدَا الْحَدِيثَ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٤] ﴿[القلوب: 44] وكقوله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٩].

أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ورسوله ﷺ. ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، والمراد حتى يخرج المؤمن من الكافر. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [١٦] إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [١٧] ﴿[الجن: 26، 27] ﴿فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله، واتبعوه فيما شرع لكم. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١٨].

أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وفي البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بهلزميته - يعني بشدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية. وفي الحديث «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلحظ حتى يطوقه». وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي بنياتكم وضمائركم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [١٩].

عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً فيضلعفه له أضعافاً كثيرة﴾

[البقرة: 245] قالت اليهود: يا محمد، أفتقر ربك، فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقوله: ﴿سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم رسل الله، وسيجزيم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٦).

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ...﴾ أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣).

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا...﴾ يقول تعالى تكديماً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن يؤمنوا للرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي فلم قابلتهمم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتهمم؟ ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنكم تتبعون الحق، وتتقادون للرسول.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤).

ثم قال تعالى مسلماً لنبية ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ...﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البيّنات، وهي الحجج والبراهين القاطعة. ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح الجلي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعَمْرُورِ﴾ (١٨٥).

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْنَا فَإِن ۖ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ رِجَالًا لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرحمن: 26، 27] فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون. وكذلك الملائكة، وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة، وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها، من صلب آدم، وانتهت البرية أقام الله القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها: جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه، ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إن في الله عزاء عن كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام. وقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأَذِنَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي من جنب النار، ونجا منها، وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز. وفي الحديث «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ...﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْتِيهِمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: 16، 17] وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه». قال قتادة: هي متاع متروكة، أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَايَ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَتُبْلَوُنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْمَوْتِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالسَّرْبَتِ...﴾ [البقرة: 155] أي لا بد أن يتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَمْرًا لَهُم بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ يَفْرَجُ اللَّهُ.﴾ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا...﴾ كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى يأذن الله فيهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيَتْنَهُ لِنَّاسٍ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك، وتعرضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي

السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم. فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨).

يعني بذلك المرأين المتكبرين بما لم يعطوا، وفي الحديث: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة» وفيه «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩).

أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونبات، وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم، والروائح والخواص. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز العليم. ولهذا قال تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقيقتها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٩٥) [الانبيا: 105].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١).

ثم وصف الله تعالى أولي الأبواب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ...﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألستهم. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته. قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة، ولي فيه عبرة. وعن الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. ﴿رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴿١٩٠﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزى الذين أسأؤوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث، قنا عذاب النار بحولك وقوتك، وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتحيرنا به من عذابك الأليم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿١٩١﴾ .

﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أردت بهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ ﴿١٩٢﴾ .

﴿مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ. ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي يقول: آمنوا بربكم فآمننا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي ألحقنا بالصالحين.

﴿رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ ﴿١٩٣﴾ .

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: على السنة رسلك، وهذا أظهر. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي على رؤوس الخلائق. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وفي الحديث «العار والتخزية تبلغ بابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله عز وجل ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار». حديث غريب. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل في تهجده.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾ ﴿١٩٤﴾ .

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأجابهم ربهم. قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...﴾ ومعنى الآية أن المؤمنين من ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ...﴾ بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء. ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي تركوا دار الشرك، وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والايخوان والخلان

والجيران. ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 195] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا.

﴿لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ [١٩٦].

يقول تعالى: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعمًا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصيحون مرتنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه.

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [١٩٧].

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرِبُكَ قَلْبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ [غانر: 4] وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا، وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [١٩٨].

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ...﴾ عن النبي ﷺ قال: «إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن نوالديك عليك حقًا، كذا لولدك عليك حق» رواه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا. عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطِّلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطِّلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

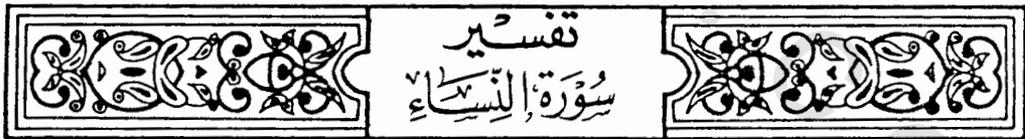
﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٩٩].

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على

محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترطون بآيات الله ثمناً قليلاً، أي لا يكتفون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب، وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بُلِيَ عَلَيْهِمْ ظُلْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَأَكْفِيَنَّهُمْ مِنْ فَتْنِ الْيَوْمِ أُولَٰئِكَ يُتْرَكُونَ لِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصر: 52 - 54] وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاها النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخطأ لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه» فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه. وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس قال: لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم» فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ . . .﴾ وقوله: ﴿لَا يَسْتَرْوْنَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يكتفون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعني سريع الاحصاء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ .

قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء، ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتفون دينهم. وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وفي الحديث: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿١﴾ .

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها